الاتجاه الوجداني في شعر توفيق صالح جبريل

ميرغني حمد ميرغني حمد
قسم اللغة العربية، كلية التربية، جامعة كسلا، كسلا، السودان
البريد الإلكتروني: merganihamad33@gmail.com

مستخلص الدراسة

إن توفيق صالح جبريل، أحد أعلام شعراء السودان الوجدانيين المهتمين بقضايا التجديد في الشعر، وقد أثرى الساحة الأدبية بفكره وثقافته الأدبية. وهدفت الدراسة إلى دراسة الاتجاه الوجداني في شعره. وتأتي أهمية البحث في التعرف على شخصيته باعتباره لم يحظ بنصيب وافر من الإعلام، ولكي تساهم مجهوداته الأدبية في استفادة طلاب العلم والباحثين من ثروته اللغوية. واتبعت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وتوصلت إلى جملة من النتائج أبرزها: بلغ الشاعر توفيق صالح جبريل في معجمه الشعري وعباراته وإيقاعها مستوى بديعاً من الغنائية و الخيال وعشق للطبيعة ووصف جمالها ورونقها. وإن بعض الأماكن التي عمل فيها توفيق تمثل رمزاً للفطرة النقية والبراءة والنقاء ولذلك يذكرها دائماً في شعره بصدقٍ وهي تسري في وجدانه. برزت ظاهرة شعر الإخوانيات في شعره بروزاً ساطعاً وتميز هذا النوع من الشعر بخفة ظله وسهولة معانيه وكان ينتشر في الأوساط الاجتماعية بسرعة ويجد القبول و التشجيع، ويعد توفيق من أبرز رواد شعر الإخوانيات في السودان. وتوصي الدراسة بدراسة الأغراض الأدبية في شعره وتحليلها أدبياً وفنياً.

الكلمات المفتاحية: توفيق، وجدان، كسلا، السودان.

Emotional Direction in the Poetry of Tawfiq Saleh Jibril

Mergni Hamad Mergni Hamad
Department of Arabic Language, Faculty of Education, University of KassaLa, KassaLa, Sudan.
Corresponding author email: merganihamad33@gmail.com

Abstract

Tawfik Saleh Jibril, one of the leading Sudan's emotional poets interested in issues of renewal in poetry, and enriched the literary scene with his thoughts and literary culture. This study aimed to study the emotional trend in his poetry. The importance of this research stems from the recognition of his personality as he has not received a large share in the media and to contribute to his literary efforts to benefit students and researchers of his linguistic wealth. The researcher followed the analytical and descriptive method and reached a number of results. The most prominent: the poet Tawfig Saleh Jibril in his poetry and his vocabulary and rhythm showed wonderful level of singing and imagination and a passion for nature and that some of the places where Tawfig had worked represented a symbol of pure and innocent nature and therefore always reminds them in his poetry honestly. Brotherhood poetry phenomenon emerged in his poetry brightly and this type of poetry was characterized by the lightness of the shadow and ease of meanings and is spreading in social circles quickly and finds acceptance and encouragement and Tawfig is one of the leading pioneers of the poetry of the brotherhood in Sudan. The researcher is recommending studying the literary purposes in his poetry analyzing it artistically.

Keywords: Tawfig; Emotion; Kassala; Sudan

مقدمة:

تمثل النزعة الوجدانية الرومانسية ظاهرة فنية خالدة في مسيرة الشعر العربي واتجاهاً شعرياً بارزاً ومستمراً حتى اليوم رغم التطور في المذاهب الفنية التي أعقبت المرحلة الرومانسية، والشعر العربي لم يخل أبداً من نماذج الاتجاه الوجداني وبخاصة العصرين الأموي والعباسي من أمثال جميل بن بثينة وكثير عزة وقيس بن الملوح وغيرهم، وقد استمرت النزعة الوجدانية على مدى القرون المتتالية وازدهرت في عصرنا الحديث ولمعت أسماء مبدعين منتمين لمدرسة الديوان كعبد الرحمن شكرى، ومنتمين لمدرسة المهجر كجبران خليل جبران. وفي أدبنا السوداني المعاصر برزت شخصيات أدبية من أبرزها توفيق صالح جبريل.

إن أغلب شعراء القرن العشرين في السودان هم نتاج التعليم الاستعماري الذي تعود بداياته إلي عام 1902م وكان هذا التعليم مصدراً للتعرف على العلم الحديث و الثقافة الغربية التي كان لها الأثر الواضح في أدبنا السوداني المعاصر، وقد عبر الشعراء السودانيون عن هذا الوطن تعبيراً يسوده الخيال والألفاظ الجزلة، فبقيت أعمالهم في سجل الفن الرفيع(تيمور، 1970).

ومن أبرز شعراء هذا القرن الشاعر توفيق صالح جبريل الذي درج على الإفصاح عن دواخله ووجهات نظره حول الحياة ومشكلاتها في لغة شعرية رصينة وتجلت مقدرته على النظم والابتكار والدراسة تسلط الضوء على شعره الوجداني وتبين قيمه الإنسانية الفاضلة.

أهمية البحث:

1. معرفة الشعر الوجداني عند توفيق صالح جبريل وتسليط الضوء عليه باعتباره لم يحظ بنصيب وافر من الدراسة.

2. رغبة الدراسة في معرفة إلى أي مدى تعمق الشاعر توفيق صالح جبريل في التيار الوجداني؟

أهداف البحث:

1. استقراء تجربة الشاعر توفيق صالح جبريل في شعره الوجداني ومحاولة الكشف عن تجلياتها الجمالية والفنية.
2. الكشف عن دور الشعر الوجداني في تطور تجربة الشاعر توفيق صالح جبريل.
3. استجلاء الموهبة الشعرية للشاعر توفيق صالح جبريل فيما يتعلق بشعره

الوجداني.

4. الوقوف عند سمات الشعر الوجداني لدى توفيق صالح جبريل.

5. إثراء المكتبات العربية والعالمية والسودانية بروائع الشعر الوجداني عند توفيق صالح جبريل.

مشكلة البحث:

1. ما هو حظ الشاعر توفيق صالح جبريل من التطورات التي عرفها الشعر الوجداني المعاصر؟
2. إلى أي مدى اصطبغ شعر الشاعر توفيق صالح جبريل بالصبغة الوجدانية؟
3. ما حدود العلاقة بين الوجدانية والرومانسية؟

منهج البحث:

حاولت الدراسة الإجابة عن هذه الاشكالات متبعةً المنهج الوصفي التحليلي ومستفيدة من المصادر والمراجع وديوان الشاعر توفيق صالح جبريل المسمى أُفق وشفق.

مفهوم الشعر الوجداني وخصائصه:

إن الشعر الوجداني هو الشعر الذي تبرز فيه ذاتية الشاعر سواء عبَّر عن إحساساته ومشاعره الخاصة، أو صور إحساسات ومشاعر الآخرين ولونها بخواطره وأفكاره، وهو الشعر القائم على الحس الشخصي والتصوير النفسى الصادق. ومن أهم دوافع هذا النوع من الشعر الغنائي هو الألم والمعاناة ومرارة التجربة، مما يحمل الشاعر على البوح بما في نفسه من شعور بالألم أو الوحدة أو الحب، أو غير ذلك من العواطف الصادقة التي تلهب القلب، وترقق الحس، وتصفي الذات، وهو ينطلق من قلب الشاعر ليتوجه إلى قلبه موحداً بين الذات والموضوع، محولاً الشاعر إلى النبع والمصب في آنٍ معاً. في حين نجد الأغراض الغنائية الأخرى تنبع من قلب الشاعر لتتسكب في ذوات الآخرين كالمدح الذي يحمل عاطفة الشاعر إلى الممدوح، والهجاء إلى المهجو، والغزل إلى الحبيب، إذن الشعر الغنائي أعم من الشعر الوجداني والشعر الوجداني هو ذلك الشعر الغنائي الذي تسيطر عليه العاطفة(أميل، 1966م).

جرى العرف عند كثير من الدارسين على أن يسمُّوا هذا الاتجاه الوجداني في شعرنا العربي الحديث بالاتجاه الرومانسي مستعيرين هذا المصطلح الأوربي.

والحركة الوجدانية حركة إيجابية تقوم في جوهرها على فرحة الفرد باكتشاف ذاته واعتزازه بثقافته ووعيه الاجتماعي وحسه المرهف وتطلعه إلى المثل الإنسانية العليا من حرية وكرامة وعدالة وعفة وعشق للجمال ونفور من القبح و التخلف وقد حملت هذه الحركة من الناحية الفنية - عبء التجديد و الخروج من الأنماط الشعرية القديمة وابتكار صيغة شعرية حديثة يمتزج فيها التراث بالعصرية وتكتسب فيها الألفاظ دلالات حديثة وقدرة جديدة على الإيحاء. ولا شك أن الأدباء الوجدانيين يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً في الموقف والفن وفي طبيعة التجربة الشعرية و الصور الفنية، فقد نجد عند أحدهم التفاتاً ملحوظاً إلي الطبيعة وعند آخر انشغالاً واضحاً بالحب، وعند ثالث نظرة اجتماعية أو كونية أو أخلاقية. وقد ترى في أسلوبهم الفني توازناً بين القديم والجديد أو ثورة على التقاليد الفنية أو تأثُّراً بأساليب وافدة. والشعر الوجداني يتسم بسمات فنية عرف بها، من ميل إلى الصور الخيالية والتجسيم والألفاظ الشعرية المحملة بدلالات شعورية غير مقيدة بمعانٍ مادية محدودة،وتكثر المقابلة في أشعار الوجدانيين فتكون محوراً لكثير من صورهم الشعرية(القط، 1981م).

اهتم توفيق صالح جبريل بالشعر العاطفي الوجداني الغنائي وهذا يدل على نهوض الشعراء السودانيين باستخدام لغة أدبية عصرية تبحث عن الحرية. و استخدم توفيق روح الدعابة و الإيقاعات في نغم موسيقي عذب والدراسة تنقب في شعر توفيق الوجداني لما له من دلالات اجتماعية معاصرة.

سيرة الشاعر توفيق صالح جبريل:

ولد توفيق بجزيرة(مقاصر) بإقليم دنقلا في 29/سبتمبر سنة 1897م وكان أبوه يعمل مع الجيش الفاتح بوادي حلفا. أما جده جبريل فمن أبناء الشلال بمصر وأصله كنزى، وكان الشلاليون يعملون بالنقل البحري منذ القدم، واستقرت أسرة الشاعر في أم درمان حيث أنشأ والده خلوة جمعت بين الصبية و البنات. وبدأ توفيق تعليمه بخلوة أبيه، كانت تزامله أخته كثلوم التي يخصها في قصائده بودٍ خاص. ثم التحق بقسم العرفاء بكلية غردون التذكارية وتخرج مدرساً في سنة 1916م وعمل معلماً بمدرسة الأبيض الأولية، ثم استقال تعبيراً عن عدم اقتناعه بمهنة التدريس، ثم عمل بالتجارة، ثم التحق بوظيفة حكومية بالدامر وهي التي فتحت الطريق أمامه لمدرسة المآمير في سنة 1923م وتخرج منها نائب مأمور. وفي هذه المدرسة زامل توفيق عدداً من الشباب امتدت صداقته بهم حتى أخريات حياته،وكانوا له بمثابة المجتمع الذي يعايشه فهو دائم الحنين إليهم، وكانت

وظيفة نائب المأمور وظيفة مرموقة في تلك الأيام ولا يصل إليها إلا المحظوظون من أبناء السودان فالإنجليز كانوا يحتلون كل الوظائف الكبرى ويتركون وظيفة المأمور ونائبه للضباط المصرين وللقليلين من السودانيين. وقد ظل توفيق يحتل هذه الوظيفة حتى أحيل إلي المعاش سنة 1951م بقرار طبي شكلاً أو مبعداً عن الخدمة بقرار سياسي واقعا (جبريل، 1991م).

واستقر توفيق بعد ذلك في أم درمان واتخذ بيته منتدى أدبياً، وظل يرسل منه شعره وطرائفه منسوباً إلي الجزء الذي يحتله من منزله وهو الدهليز. ويبدو أنه عاد إلى التجارة في هذه الفترة وهو اتجاه عام بالنسبة للمعاشيين. وفي أواخر عمره اشتد عليه مرض النقرس الذي يعرف بداء الملوك وأقعده وعذبه، وبقي نزيل المستشفيات أو حبيس دهليزه وفي تلك الفترة نظم مقطوعات من أجود ما نظم، كما إنه نظر في شعره القديم معلقاً ومعقباً ونشر الكثير من قديمه وجديده في الصحف حتى فارق الحياة بعد عناءٍ طويل في 26 أبريل سنة 1966م. وقد تمكن توفيق من التوفيق بين شخصيته الشاعرة وحياته العملية وقد خرج بتجربة نفسية مريرة. وكان يكره الإنجليز و اشترك في حوادث 1924م وهذا بعد الشقة بينه وبين رؤسائه الإنجليز فوقف حائلاً دون ترقيته، وأبعد الشقة بين نفسية توفيق وعمله. وابتكر توفيق نظرية طريفة عن الموظف السوداني وهي قائمة علي أن له رأسين يحمل أحدهما في المكتب والآخر عندما يخلو إلي نفسه. والباحث يود أن ينقب في شعر توفيق الوجداني الذي يمتد من وطنياته إلى الأصدقاء والذكريات التي مثلت عمراً آخر للشاعر، والخمر والمرض، والزمن و التاكة و القاش،... الخ(جبريل، 1991م).

مصادر شاعرية توفيق صالح جبريل:

ما من شاعر إلا وتتضافر عدة عوامل في تكوين شاعريته، فالشاعر توفيق قد أحب اللغة العربية وآدابها، وهو على علم بالشعر العربي وشعرائه وسعى أن ينظم شعراً جيداً، وحملت أشعاره العاطفية سمات الشعر العربي المعاصر. وأشار الدكتور أحمد عكاشة أحمد فضل الله إلى أن مصادر شعر توفيق تتلخص في: رجاحة عقله، وحبه للطبيعة وصبره، وعدم مبالاته، وجنوحه للسلم، وقناعته، وعلاقاته المتميزة مع الأهل والأصدقاء والناس جميعا، وكل ذلك أسهم في تكوين شاعريته. وهي قيم عظيمة أفرزت قوة الشاعر وحيويته، وقد تعلم توفيق مبادئ العروض وقراءة دواوين الشعراء على يد الشاعر أحمد محمد صالح، وعشق شعر المتنبي وافتتن بشوقي وبشارة الخوري، وقام بتطوير الخيال الشعري والتحرر بعض الشيء من صرامة تلك العروضيات. ونتيجة لجهد الشاعرين توفيق وأحمد صالح

توسعت أغراض قرض الشعر السوداني إذ أضيف السياسي و الاجتماعي منها إلى المجال الأدبي والوجداني، وتسللت إليه الرومانسية من الشعر الغربي و الرومانسية العربية(خليل مطران، ايليا أبو ماضي، عمر أبوريشة) فأضح محباً للطبيعة. وذا فلسلفة وعمق وجداني وامتد الخيال عند نظم الشعر وتم التوسع في تعابير العاطفة والوجدان واحتوى على الصور الشعرية الممتدة وازدادت الوحدة العضوية للأشعار السودانية (وحدة المقاطع لا وحدة البيت الشعري) (فضل الله، 2014م).

يعد توفيق صالح جبريل ضمن الشعراء السودانيين المحدثين، وهو شخصية أدبية سودانية مهمة، ومن أهم جوانب تجربته الشعرية إنه ترك زهاء(388) نصاً شعرياً يشكل سجلاً لحياته الداخلية ولجهاده السياسي والحياتي الذي يشكل طريقاً طويلاً يشمل الكثير من التعليم الذاتي، وجاء شعره فاحصاً لأفكاره ودوافعه ومشاعره، وترك شعره فرصة واسعة للأجيال التي تلته للخوض في أشعاره وسيرته لعهود قد تطول كثيراً.

توفيق صالح جبريل و الرومانسية الجديدة في الشعر السوداني:

تميز الشعر السوداني بالخيال و العاطفة والنزعة إلى تصوير الخبرات الذاتية و تمجيد عامة الناس وبحب الطبيعة الخارجية والميل إلى الكآبة وهذا ما اتسم به شعر توفيق صالح جبريل و شاركه في هذه النزعة الرومانسية التجاني يوسف بشير و الناصر قريب الله و إدريس محمد جماع. وقد تميز شعراء هذه المدرسة ببعض الميول الفكرية منها: الإحساس والإدراك ورقة الشعر، والإيمان بأفضلية الحياة البسيطة المشدودة الجذور إلى الطبيعة، وعشق الطبيعة، والاهتمام والتعاطف مع الأحداث والشخوص.

وتميزت التجربة الشعرية لكل واحد منهم بالأهمية التي أولوها لتجاربهم الحياتية وإن أعظم و أروع ما نظموه من أشعار تنبع من الصدمات التي واجهوها إبان عيشهم. وكذلك اهتم شعر كل واحد منهم بمشكلات النضال القومي وتوحيد صفوف السودانيين وبناء مجد الوطن. إلى جانب التركيز على جمال البيئة الطبيعية و الحياة السودانية المتواضعة(جبريل، 1991م). وحب الطبيعة شكل أحد دعائم شعر توفيق مثل عشقه للنواحي السودانية الرائعة ووصفه للمكان والصدق بعشق للبيئة والانغماس في الشهوات الحسية.

موضوعات شعر توفيق الوجداني:

عالج توفيق صالح جبريل كثيراً من أغراض الشعر في الوصف والرثاء والخمر والجمال وما إلى ذلك وبرزت في أشعاره معاني وجدانية صادقة.. ومن هذه الموضوعات:

1. الوطنيات: وهذه تنطلق دائماً من واقع كراهية الشاعر للإنجليز، فهو في صراع دائم معهم في محيط عمله، وعلى مستوى الوطن كله، ويعد توفيق الإداري الوحيد في السودان الذي عمل في الإدارة لأكثر من ثلاثين عاماً بدون أن يترقى ولم يساوم أبداً وهو القائل:

سألاقي الموت صلباً كالرماح
تاركاً بعدي شيئاً لن يموت
هو ماذا ؟ حق الصراح

ويقول:

نزلاؤنا النبلاء الكرماء من أبناء جنس
الصاعدون إلى العلا النابذون لكل رجس
عمالنا الغبش الخفاف الخشن لم ألجا لملس
أنتم حياة الشعب حاموا وحب الشعب قدسي
ما بعتم يوماً ضمائركم بغال أو ببخس
أو حمتموا حول "السرير" ولا تمسحتم بكرسي

وتتجسد معاني الوطنية في شعره ونجده يقول:

يا منى روحي وعقلي يا نسيما في الصباح
اسقني حبك عذباً أو مراقاً من جراح
إنما حبك نجوى لا بكاء ونواح
إنه كاللحن ينساب شجياً في انشراح
هكذا أصبح نشوان و أمسي في ارتياح
فرحتي يا منيتي أين المني أين الوعود؟
إنني أشكو الهوى أشكو النوى أشكو الصدود

(أبو سليم، 2014م).

وتتجسد معاني الوطنية الحقة في شعر توفيق وهو يدعو للحفاظ على الدين ورعاية الأخلاق، وحب الخير للناس أجمعين وإصلاح النفس و إصلاح الأسرة والمجتمع وهذه المعاني تماثل قول ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهم ❖❖❖❖ مآرب قضاها الشباب هنالكا

اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ❖❖❖❖ عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
(ابن الرومي، 221هـ).

ذكرى بعض المدن السودانية: عشق توفيق مناطق متنوعة بالسودان وخلدها في شعره مثل: طوكر وكسلا، الدامر، أم روابة، تلودي، بارا، رشاد، المناقل، مدني وعطبرة. وله قصيدة بعنوان ذكريات مسجيات يذكر فيها ذكريات جملية إذ يقول في أجزاء من تلك القصيدة:

ورُبَّ كأسٍ "ربيا" قد شربت وفي❖❖ "سنكات" و" الملتقي" الحاني "وسنار"
و"أركويت" بلغنا أوج بهجتها❖❖وثباً إلى السب بين "القصر" و"البار"
وفي "رفاعة" كم قارعتها بهجاً❖❖ بين الشجيين من زهر و أقمار
وقد نعمت "بحلفا" والرفاق لنا❖❖يأتون من "مصر" بالمستعذب الساري
أما "الأبيض"والذكرى ملوعتي❖❖تجاذبت فيه أوطارى و أوتاري
ولي صحاب سقوني الود في(مدني) ❖❖ بظل عيش نضير مشرق الدار
وثم في(كسلا) والقاش مندفق ❖❖ جار رفيق رعاه الله من جار
جاذبته الود حتى لان وانبعثت ❖❖ منه الشجون فجاراني بمضمار
ثم افتقدت (رشاي) حين جاء بي ❖❖ الحادي لظل(رشاد) سادر سار
تلك الأواصر من خلقٍ ومن أدب ❖❖ كأنها صَفْوة أنداء أزهار
وكم لقيت "بأرقو" منً ملائكةٍ ❖❖ من الملوك وقوني لفحة النار
وميعة في حمى "ود باكر" جمعت ❖❖ بينيٍ وبين نضير الحسن مختار
لقد فعلت بقلبي مثلما فعلت ❖❖ يوماً "بوادي شعير" طيبة الدار
والقوم في "دامر المجذوب" ليتهمو ❖❖ ساقوا أخاهم وودوني بمقدار
وكم شربت "بدلامي" ولي حشمٌ ❖❖ لو شئت لا بتعت... بدينار
حتى "سواكن" البيضاء إن ذهبت بك ❖❖ الليالي تجد شدوي وآثاري
طوكر" لا رعى الله المقام بها ❖❖ وهل يسوغ شراب بين إعصار
وفي "حلايب" ذات النخل أوقفني الساري ❖❖ فحطمت كاساتي وقيثاري
ما أجمل العيش والدينا محببةٌ ❖❖ والروح فيها تجلى المبدع الباري
(جبريل، 1991)

وأحب توفيق كسلا ويذكرها دائماً في أشعاره وخصها دون المدن السودانية فيقول:

إذا التاكة السمراء بانت فإن بي ❖❖❖❖هواها مقيم و الخيال طروق
(ياسين، 2002)

ويصف السواقي وصفاً بارعاً ويقول:

أنين السواقي الساقيات جوانحي بسمعي وإن طال المدي يتردد

(ياسين، 2002)

ويرى محمد عثمان ياسين الذي قاسم توفيق كثيراً من ذكريات كسلا، إن كسلا بالنسبة لكليهما هي دمشق أحمد شوقي والتي يعتبرها أم المدن (إدريس، 2003).

لولا دمشق لما كانت طليطلة ❖❖❖❖ ولا زهت ببني العباس بغدان

وقوله:

بنت البقاع وأم بردونيها ❖❖ طيبى كجلق واسكبي برداك
ودمشق جنات النعيم وإنما ❖❖ الفيت سُدَّة عرتهن رباك

ولا ينسى توفيق ذكرياته الخالدة في غرب القاش وبستان صديقه الكباشي عثمان علي كيلا فيقول:

وأين بستان (كيلا) والكروم به ❖❖ إذ تدلى هنا غصن هناك دنا
تلك العناقيد منثور فرائدها ❖❖ حمراً وبيضاً قد امتدت لها يدنا

إلى أن يقول:

لك في التاكة السمراء ناضرة ❖❖❖❖ وهبتها كل ودي للهوى ثمنا
كنا ويا ليتنا دمنا بجانبها ❖❖❖❖ ندعو ونرجو إذا ما الغيث أخلفنا
الحب متفقاً والبرد مؤتلقاً ❖❖❖❖ والقاش مندفقاً والسيد الحسنا

(ياسين، 2002م)

وفي يوم شم النسيم عام 1963م بمستشفى أم درمان تذكر كسلا وغرب القاش وحديقة كيلا ورجع به الزمن لعام 1936م تلك الأيام الجميلة التي عاشها في كسلا بين إخوانه، فكتب قصيدة رائعة بعنوان(شم النسيم) أهداها إلى روح صديقه النبيل عثمان علي كيلا منها:

لما ذهبنا وركب الصحب متجه ❖❖ لدار كيلة غرب القاش نصطبحُ
تفتح الأفق ألواناً ولاح لنا ❖❖ روضٌ أنيقٌ ونجم الصبح متّضحُ
ما أن تلاشى ضياءُ الفجر متئداً ❖❖ حتى طوانا الهوى واللهَو والمرحُ
وأقبلت سحبٌ من هاهنا وهنا ❖❖ وغرَّد الطيرُ لما صحبتي صدحوا
وا حسرتا يوم عيد قُيدت قدمي ❖❖ سرتُم وأني أسير الداء مطرحُ

(توفيق، 1991م)

والقصيدة تمثل ذكريات وجدانية مرتبطة ببعض الأماكن في مدينة كسلا

فهو دائماً يحن إليها ويبكي أيامه الجميلة التي قضاها مع أصدقائه، ويتذكر جلساتهم الخمرية والذكرى تستدعي النواح وتحتم الرثاء، و كانت هذه المناطق تمثل في نفس الشاعر قطعة فنية راقية مفعمة بالحياة زاخرة بالمشاعر والأحاسيس الجياشة. وعندما سقطت كسلا في أيدي الطليان أثناء الحرب العالمية الثانية يؤاسيها توفيق بقصيدة من عيون شعره سماها(كسلا) يسترجع ذكرياته الجميلة فيها، منها:

وتلك المراعيا يا يرعى الله حسنها ❖❖ إذا باكرتها بالغيوث بروق
وإنك يا قلبي إذا طرت هائماً ❖❖ وبلغت أشجاني لأنت طليق
(توفيق، 1991م)

وقد أهدى صديقه محمد عثمان ياسين قصيدة(غب عتاب) ويتذكر فيها توفيق أيامه بكسلا ويصف جمال رونقها وطيب عبيرها، يقول:

ذكرتك والمعاني داعيات ❖❖❖❖ معاني أشرقت من كل جنس
فلاح الطود يهدينا ظلالاً ❖❖❖❖ وتهديه السحائب خير لبس
وبين القاش والأثلات سربٌ ❖❖❖❖ ترينا من شفاه لحن لعس
جمال التاكة السمراء يبدو ❖❖❖❖ مطلاً بين إطلاق وحبس
و(أحمد) يوقظ الآمال فيتنا ❖❖❖❖ لنبلغ في غدٍ ما فات أمس

ولاشك أن توفيق أكد عبر هذه الأبيات حبه الجارف لكسلا وما تحتله في وجدانه تلك المدينة الساحرة الملهمة ولهذا أحب كسلا وجرت على لسانه في قصائده التي ترنم بها الأدباء. و ما ذكر الأدب الذي قيل في كسلا إلا و كان شعر توفيق في المقدمة.

ومن أروع قصائد توفيق قصيدة حديقة العشاق التي ترنم بها الفنان عبدالكريم الكابلي وأصبحت تحظى بنصيب وافر من الحفظ و التمعن، ويحكي عنها توفيق بنفسه بأنها وصف لليلة مشرقة من ليالي كسلا وإنه استمع إلى صديقه محمد عثمان ياسين بعد خمسة وعشرين عاماً يترنم بإحدى أبيات القصيدة:

ظلت الغيد والقوارير صرعي ❖❖❖❖ والأباريق بتن في إطراق
(توفيق، 1991م)

ويالها من عبقرية رائعة فقد أكمل رسم اللوحة الفنية بعد ربع قرن من الزمان في إطار جديد يقول:

نضّر اللهُ وجه ذاك الساقي ❖❖ إنه بالرحيقِ حل وثاقي
فتراءى الجمال مزدوج الـ ❖❖ إشراق يسبيَ معدد الآفاق

نغم الساقيات حرك أشجاني ❖❖ وهاج الأسى أنينُ السواقي
ظلت الغيد والقوارير صرعى ❖❖ والأباريق بتن في إطراق
اتتني بالصبوح يا بهجة الروح ❖❖ ترحني إن كان في الكأس باقِ
يا ابنة(القاش) إن سرى الطيفُ ❖❖ وهناً واعتلى هائماً فكيف لحاقي
والمنى بين خصرها ويديها ❖❖ والسنى في ابتسامها البراق
(كسلا) أشرقت بها كأس وجدي ❖❖ فهي في الحق جنة الإشراق

(توفيق، 1991م)

وتعد قصيدة حديقة العشاق من أروع ما كتب توفيق لأنها تمثل لوحة فريدة في الإيقاع والجرس الموسيقي وتشمل عناصر الفرح والبهجة، وجرت القصيدة في وجدان أهل كسلا، فالبيت الأخير أجرى فيه أهل كسلا تعديلاً بحذف كلمة(كأس) ووضع كلمة(شمس) بدلاً عنها وهذا يدل على الارتباط الوجداني و التأمل في كلمات النص الأدبي ولا شك أن كلمة شمس تزيد البيت رونقاً وجمالاً وبهاءً(اتحاد الأدباء والكتاب ولاية كسلا، 2015م).

وفي قصيدة(أمشي الهوينا) يتذكر توفيق بحرقة وأسى:

يا حاملاً ذكريات وهي زاخرةٌ ❖❖ رفقاً إذا جزت بين النجد والنفق
إن طفت في دامر المجذوب سر قدماً ❖❖ فالمكث في(القلد) المغبر لم يطق
وأمشي الهوينا حيال العطبري إلي ❖❖ (أم الطيور) لذات الطلح والنبق
نفوس تشرئب إلى جمالٍ ❖❖ يفيض بجانبيته ألاّ يرق

(توفيق، 1991م)

3. مراثي توفيق:

الرثاء في اللغة متعلق بالميت و البكاء، وهما في الأصل مصدر للفعل "رثي" فيقال : " رثيت الميت رثياً ورثاء ومرثاة ومرثية(الفيروز أبادي، 2004م).
ويدل(رثى) في أصله على التوجع والإشفاق.أما الرثاء في الاصطلاح مديح الميت. ولذلك نجد الجاهليين يرثون بالخصال التي كانوا يفتخرون ويمدحون بها. ولا ريب في أن رثاء الأقارب كان في العادة أقرب إلى العاطفة(ابن منظور، 1991م).
يقول الدكتور مصطفي السيوفي:"وإن الرثاء هو بكاء الميت، والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته وعد خلاله الكريمة التي يروع الأعداء فقدها، والإشارة بمناقبه وشمائله وكانوا في الرثاء على شرطهم في غيره لا يبالغون، ولا يهولون فيتصورون الأرض تميد، والسماء ترمي بالشهب، وإنما كانوا يبكون

في الميت الشجاعة و النجدة والكرم و الوفاء ونحو ذلك مما كانوا يمتدحون به"(السيوفي، 2008م).

ولا شك أن الأدب مبعثه الاستجابة لأحاسيس النفوس من حب وبغض، والتعبير عن رغباتها من إذاعة المكارم ونشر المحامد، وتصوير عاطفةً آلماً فقد حبيب وموت عزيزٍ، أو اغتراب خلّ وفي أو بكاء على الديار(الهاشمي، 2007).

والدراسة تنقب في شعر توفيق صالح جبريل مبينةً الاتجاه الوجداني في شعره وتوضح كيف انفعل بأحاسيسه ومشاعره عند فقده لأهله وأقاربه وأصدقائه وموضوع الرثاء يتجسد في روحه فقد رثى توفيق أمه شريفة سليم عبد الله بعد عقدين من الزمان من وفاتها حيث كتب في قصيدة(ذكرى أمي):

مضت(أُمي) بآمالي الغوالي ❖❖❖❖ وبَدَّد فقدها العطفَ الأخيرا
تولى ربع قَرنٍ وهي مني ❖❖❖❖ كليلة أمس لم تبعد كثيراً
فبات الحُزن منبجساً ملحاً ❖❖❖❖ وظلَّ الدمعْ منحبساً غزيراً
وكان البيتُ مزداناً بهيجاً ❖❖❖❖ وركن البيت فواحاً عبيراً
وكنت بنا الرحيمة فضت فيضاً ❖❖ لنا عطفاً وكنت حمى نصيراً
وكنت لإخوتي حصناً ودرعاً ❖❖❖❖❖ إذا ألمُ ألمَّ بنا مثيراً

(جبريل، 1991م)

في هذه الأبيات قدم توفيق صورة حزينة مؤثرة تقطع نياط القلوب، وتفتت الأكباد، وتذيب النفوس حسرة وكمداً، فحزنه خافت يتسرب إلى حنايا الضلوع ببطءٍ كأنداء الخريف.وهذه الصبغة الوجدانية و السهولة الطبيعية، هي مرآة للنفس الشاعرة المتألمة، وللقلب الرقيق، كما هي صوت للألم في إباءٍ ورصانة، والشاعر ظل يتأمل في فقد أمه عقدين من الزمان ولم يستطع الكتابة وهذا يدل على عمق الإحساس بالمصيبة و الفاجعة(جبريل، 1991م).

وتتجسد معاني الحزن النبيل في رثائه لشقيقته كلثوم حيث بكاها بحرقة قائلاً:

أطل الخطبُ وانفض الوعيدُ ❖❖ وبيتك هل يهل عليه عيد؟
زمانك كان لي عيداً سعيداً ❖❖ وبعدك ليس لي يوم سعيد
سقيت القبر لو جادت دموعي ❖❖ ولكن المدامع لا تجود
إذا جف المعين فمن معينٌ؟؟ ❖❖ وما ماء الشؤون له وجود
أمد يدي إليك أحط حملي ❖❖ عليك وبيننا بون بعيد

ويقول في رثاء محمد سعيد العباسي صديقه الذي كان يبادله الشعر:

ذهب الردى بالمستغاث الآسي ❖❖ سامي الشعور المبدع العباسي

وفي رثاء الناصر قريب الله يقول:

يا لصحبي أولجوا هجدوا ❖❖❖❖ ولقلب من أسى أجدُ
كل يوم موكبٌ لأخ ❖❖❖❖ يتجلّي ثم يبتعدُ
غاب خلفَ الأفق مشرقَّة ❖❖❖❖ وتوارى الطائر الغرد

(توفيق، 1991م).

وعندما توفي صديقه(رزق الله) ينعيه وينعي حديقته الغناء وارفة الظلال وبعد موت صاحبها أصبحت حديقة جرداء ويتذكر جلساته الأدبية في تلك الحديقة مع أصدقائه وصديقه العزيز(رزق الله)

إن الديار كأهلها ❖❖❖❖ حيناً تعيشُ وتدبر
يا أيها الدارُ الأنيقةُ ❖❖❖❖ كيف جف الكوثر؟
كانت رحابك روضة ❖❖❖❖ فيها المنى مدثَّرُ
يختال "رزق الله" فيها ❖❖❖❖ والأزاهر تنشر
عطراً وإشراقاً وإشفاقاً ❖❖❖❖ وما لا أذكر(جبريل، 1991م).

وبكى توفيق صديقه الدكتور أنيس قائلاً:

لقيت أنيساً في جبال رشاد ❖❖ فكان أنيسي حيث ضل رشادي
على أن هذا الكون ليس بخالدٍ ❖❖ فكل كيان ذاهب لنفاد

(جبريل، 1991م).

وبما أن توفيق قد رثى الكثيرين فقد رثاه رفاقه وصحبه فيرثيه صديقه جعفر حامد البشير بقصيدة رائعة سماها سلاماً أخا الدهليز:

لحاقك بالأحرار كنت تريده ❖❖❖❖ وتهفو له في صحوةٍ ورقاد
وكنت تناجيهم على بعد شقة ❖❖❖❖ تحول، فتصغي خاشعاً وتنادي
أولئك أرباب "اللواء" بكيتهم ❖❖❖❖ وفاء وما أبقيت فضل جهاد

(جبريل، 1991م)

سلاماً أخا الدهليز إني أخاله ❖❖ عليك بدا في وحشةٍ وحداد

وقد جارى توفيق الشاعر شوقي بقصيدةٍ تماثل في جمالها وشجنها.

وقف شوقي على قبر ليلى(هي رمز للمحبوبة) قائلاً:

عرفت القبور بعرف الرياح ❖❖❖❖ ودلّ على نفسه الموضع
كثكلى تلمسُ قبر ابنها ❖❖❖❖ إلى القبر من نفسها تدفعُ
أعينيّ هذا مكان البكاء وهذا مسيلك ي أدمعُ(القط، 1981م)

وقد ذكرنا أن لتوفيق مرثيةٌ تضارعها مطلعها:

سألاقي الموت صلباً كالرماح ❖❖ تاركا بعدي شيئا لن يموت

وخاطبه صفيه وصديقه محمد عثمان ياسين الذي كان يتجول معه في ربوع السودان في المناسبات:

يا مانح السمَّار در قصيدة ❖❖❖❖ ومغرداً بروائع الأشعار
جفت مآقي الطير في أفنانها ❖❖❖❖ لما تغرب منهم الأطيار
ورنت عيون الزهر غرسى للندى ❖❖❖❖ لما عداها الطل في الأسحار
توفيق لم تحفل بأوشاب الدنى ❖❖❖❖ وظللت تشدو رغم كل أسار
فالمال قيد ما حفلت برزئه ❖❖❖❖ ومشيت تكسر قيد الاستعمار
ودَّعت أطياف الكرى متبسماً ❖❖❖❖ وسخرت من لحن بلاسمار

(جبريل، 1991م)

شعر الإخوانيات عند توفيق صالح جبريل:

إن إخوانيات توفيق كانت بمثابة الفردوس الذي يعيش بداخله وكانت ذكرياته الجميلة في كل المناطق التي عمل فيها في السودان وهي التي تسعده وتبهجه رغم ما لاقاه من ظلم المستعمر ومن مرض النقرس الذي عذبه كثيراً. ومعظم أشعاره الأخرى من خمريات وغزل وذكريات ورثاء ارتبطت ارتباطاً عضوياً بشعر الإخوانيات ولهذا يمثل هذا الجزء النهر الرئيس لشعر توفيق بينما تمثل البقية روافد متعددة لهذا النهر وإن توفيق اتخذ من إخوانياته ملاذاً يحميه غدر الزمان(جبريل، 1991م). ولقد تأثر الشاعر توفيق بالأقدمين ففي قصيدة من شعر الإخوانيات اقتبسها من معلقة عمرو بن كلثوم وسار على نفس الجرس الموسيقي والترنم، يقول فيها:

لقد طلع النهار فصبحينا ❖❖❖❖ بربك يا أمامة واصبحينا
سرت في الليل بهجتنا ووالت ❖❖❖❖ بشرتنا كأن لم نصب حينا
وماست زاهيات الروض لما ❖❖❖❖ تراءى النجم كالمترنحينا
وأرسلت الشذى عبقاً وظلت ❖❖❖❖ تنادينا فقمنا مصبحينا
وإنك يا سناء البرق ماذا ❖❖❖❖ يضيرك مرة أن تلمحتينا
رويدك فالعزيز غدا معنى ❖❖❖❖ وأمعنا في صبابته المحينا
وطاف بنورها ابن النور حينا ❖❖❖❖ من الأيام يلتمس الحنينا

(جبريل، 1991م).

أرسلت جمعية الاتحاد السودانية السرية توفيق أحمد البكري وبشير عبدالرحمن للدراسة بمصر بعيداً عن عيون مخابرات المستعمر البغيض. وهذه الجمعية كانت تؤمن بالتعليم وأهميته في تقدم الوطن و طرد المستعمر. و أرسل توفيق أحمد

البكري إلى أصحابه في السودان شعراً باكٍ يشكو غربته ويحن إليهم:

بكي في الدجي و الناس لا يسمعونه ❖❖ وهل تنصت الأسماع للحشرات
شكا ما يلاقيه فنفس حزينة ❖❖ وجد رماه الدهر بالعثرات

وما كان من صديقه توفيق إلا أن يؤاسيه ويشد من أزره وسماه الأسد الباكي حيث قال:

أرى الأسد الباكي يقلب طرفه ❖❖ وحيداً كئيب النفس في الظلمات
بكى الشاعر الباكي يفرج كربةً ❖❖ وما أبلغ التعبير بالعبرات
ولم يبكِ عن ضعفٍ فإن بكاءه ❖❖ حنينٌ إلي مجد تعثر آتِ

ويخاطب توفيق صديقه الودود محمد عثمان ياسين:

ألاَّ يا صاح والدنيا شجون ❖❖❖❖ تؤرقنا هل الأيام تنسي
(جبريل، 1991م).

خاتمة:

بعد هذه الدراسة فإن شعر توفيق صالح جبريل، صورة لشخصيته المتكاملة، فوطنياته وخمرياته وغزلياته و إخوانياته تحمل الحب العميق وتصدر عن نزعة قومية إنسانية واضحة، أما أسلوبه فهو جامع للبساطة و الرقة و الجزالة. واهتم توفيق بشعر الطبيعة ومزجها في كل أغراض شعره واتخذها ملاذاً للتعبير عما يخالج نفسه من أمل وألم ويأس ومرح وسرور وجاء شعره مصوراً لواقعه وواقع مجتمعه وكانت قصائده تمثل الغنائية والوصف الدقيق، لذا نجد أن بعض قصائده تغنى بها المغنون.

وله مقطوعات غنائية حلوة نلمس فيها حلاوة النغم وسلاسته والوحدة الفنية و المعنوية كهذه الأغنية الرائعة التي نظمها للشاعر الغنائي خليل فرح:

حرك بعودك هذه الأرواح ❖❖❖❖ واسترع الوجود
واعطف عليه فإن في ❖❖❖❖ آفاقه معنى الخلود

والحق يقال إن توفيق عاش حياته شعراً. تنفس بالشعر، ضحك شعراً وبكى شعراً، محب للحياة ويحس بآلام أصدقائه ويكون قريباً منهم. وقصائده الوجدانية فيها كثير مما نجده عند الوجدانيين القدامى من تصوير لمظاهر الطبيعة المتصلة بشجون النفس أحياناً وبفرحتها أحياناً أخرى، وتعبير عن وحشة الشاعر وتفرده وعواطف الحب الذي يتخذ الشاعر من الطبيعة خلفية له. وقد كان الاتجاه الوجداني ذا أثر بالغ في شعر توفيق حيث اتخذ من الطبيعة والحب وسيلة للدعوة إلى المثل فأسهم في تطور الحس الجمالي في المجتمع ولا شك أن العواطف الإنسانية تعد منبعاً فياضاً

للأدب، وظاهرة الاتجاه الوجداني أسهمت في تطور ألفاظ اللغةعند توفيق فأحيأ كثيراً من الألفاظ القديمة وبث فيها حياةٌ جديدة وابتكر تعبيرات وصور مجازية حتى أصبح له أسلوب متميز يتعرف عليه المتلقي بسماته اللغوية والفنية.

النتائج:

وتوصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

1. ينتسب الشاعر توفيق صالح جبريل إلى المدرسة الرومانسية انتساباً تاماً فقد كان شعره مثالاً خاصاً للشعر الوجداني عبَّر فيه عن تجربته الشعورية الذاتية العاطفية بكل ملامحها الرومانسية.

2. ظل الشاعر توفيق وفياً لتجربته الرومانسية واتجاهه الوجداني بحكم تكوينه النفسي العاطفي والمرهف طوال رحلته الشعرية في ديوانه أفق وشفق الذي خاض فيه عالم الواقعية والرمزية والصوفية وتناول القضايا الاجتماعية والسياسية.

3. اقترنت قصائد توفيق صالح جبريل الرومانسية بالملامح المعروفة في شعر هذه المدرسة من اعتناق فكرة الوحدة الموضوعية الفنية للقصيدة بدلاً من إعلاء وحدة البيت على نحو ما نرى في الشعر الكلاسيكي.

4. أبرزت الدراسة أهم الخصائص الفنية لشعر توفيق صالح جبريل الوجداني الرومانسي وهي: خصائص تتصل بالموضوعات ونوع التجارب الشعرية، وخصائص تتصل باللغة والمعجم الشعري، وخصائص تتصل بموسيقى الشعر والأسلوب الفني وطريقة الأداء الشعري وتتمثل في التعبير بالصورة.

5.بلغ الشاعر توفيق صالح جبريل في معجمه الشعري وعباراته وإيقاعها مستوى بديعاً من الغنائية والخيال وعشق للطبيعة ووصف جمالها.

6. إن بعض الأماكن التي عمل فيها توفيق تمثل رمزاً للفطرة النقية والبراءة والنقاء ولذلك يذكرها دائماً في شعره بصدقٍ وهي تسري في وجدانه. وتجسد شعره الوجداني الذي أثرى به الساحة الأدبية.

7. برزت ظاهرة شعر الإخوانيات في شعره بروزاً ساطعاً وتميز هذا النوع من الشعر بخفة ظله وسهولة معانيه وكان ينتشر في الأوساط الاجتماعية بسرعة ويجد القبول والتشجيع، ويعد توفيق من أبرز رواد شعر الإخوانيات في السودان.

التوصيات:

توصي الدراسة بدراسة شعر توفيق صالح جبريل والتأمل في وجدانياته التي

استقاها من البيئة السودانية وأهلها ومدنها الجميلة، ولا شك أنه تناول موضوعات كثيرة ممزوجة بشعر وجداني رصين يبين تجربته الشعرية الناصعة وذلك الشعر يستحق التمحيص والتدقيق.

المصادر و المراجع:

1. اتحاد الأدباء والكتاب، ولاية كسلا (2015م)، جنة الإشراق، الطبعة الأولى.
2. إدريس، عبد الله حسن محمد (2003م)، توفيق صالح جبريل، شخصيته وشعره، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية.
3. تيمور، محمد (1970م)، اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة.
4. جبريل، توفيق صالح (1991م)، ديوان أفق وشفق، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم و محمد صالح حسن، دار الجيل بيروت، الجزء الأول، الطبعة الأولى.
5. السيوفي، مصطفى (2008م)، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، مصر، الطبعة الأولى.
6. أبوسليم، محمد إبراهيم، توفيق صالح جبريل (2014م)، دار الجيل، بيروت، الجزء الرابع، الطبعة الأولى.
7. ابن الرومي(221 - 283هـ)، الديوان، الطبعة الأولى، بيروت.
8. فضل الله، أحمد عكاشة أحمد، وعادل عثمان عوض (2014م)، جبريل شاعر الدهليز توفيق صالح جبريل، طبعة 2014م، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي.
9. الفيروز آبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيرازي(2004م)، القاموس المحيط، بيت الأفكار، لبنان.
10. القط، عبد القادر(1981م)، الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، الطبعة الثانية، دار النهضة، بيروت.
11. ابن منظور (1991م)، لسان العرب، الطبعة الرابعة، بيروت.
12. الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفي الأزهري المصري (2007م)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، الجزء الأول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى.
13. ناصيف أميل (1966م)، أروع ما قيل في الوجدانيات، الطبعة الأولى، دار الجيل بيروت.
14. ياسين، محمد عثمان (2002م)، الشاعر توفيق صالح جبريل ذكريات وأحاديث، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة.